

المحاضرة الاولى

مقدمة في العصور الوسطى

يعد المؤرخون تاريخ أوروبا الى ثلاثة مراحل : الأولى هي التاريخ القديم الذي لا يمكن تحديده بزمان معين لكنه ينتهي بسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ م ، والثانية هي التاريخ الوسيط الذي يبدأ بسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية وينتهي بفتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية على يد السلطان العثماني محمد الثاني سنة ١٤٥٣ م . والثالثة هي التاريخ الحديث الذي يبدأ بفتح القسطنطينية وينتهي بنهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ م .

وقد قسم المؤرخون العصور الوسطى الأوربية الى ثلاثة مراحل أيضاً ، هي :

- ١- العصور الوسطى المبكرة : وتبدأ من سنة ٤٧٦ م وتنتهي بظهور شارلمان .
- ٢- العصور الوسطى العليا : وتبدأ من سنة ٨٠٠ م وتستمر حتى بداية الحروب الصليبية .
- ٣- العصور الوسطى المتأخرة : وتبدأ من سنة ١٠٩٦ م وتستمر حتى فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م .

ولقد كانت دراسة العصور الوسطى الأوربية ضرورية لفهم التاريخ الحديث الأوربي الذي جاء كنتيجة طبيعية لتلك العصور ، فكانت العصور الوسطى هي التي ولدت فيها الإقطاعية ، وهي التي ولدت فيها الكنيسة الكاثوليكية ، وهي التي ولدت فيها الصراعات الاجتماعية والسياسية والفكرية .

ان الهدف من دراسة هذا الكتاب هو لتقديم صورة واضحة عن العصور الوسطى الأوربية من جميع النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وهذا ما يتطلب من الطلبة قراءة هذا الكتاب بشكل متأن ومتابعة المحاضرات بشكل مستمر ، ومراجعة المصادر والمراجع التي أشرنا إليها في نهاية الكتاب ، وفي حالة عدم وجود المصادر والمراجع في المكتبة ، فان على الطالب ان يرجع الى الأستاذ لكي يرشده الى المصادر والمراجع التي يمكن أن يستفيد منها في إعداد التقارير والبحوث المطلوبة منه .

ان هذا الكتاب يحتوي على أهم أحداث أوروبا في العصور الوسطى ، لكنه لا يغني عن مراجعة المصادر والمراجع الأخرى لأن هناك الكثير من الأحداث التي لم تذكر في هذا الكتاب ، وهذا يوجب على الطالب أن يذهب الى المكتبة ويقرأ الكتب التي تتحدث عن

العصور الوسطى ، لان الطالب الجامعي يجب ان يكون باحثاً وقارئاً ومثقفاً ، لكي يستطيع ان يساهم في بناء المجتمع الاقتصادي والاجتماعي في المستقبل القادم . ان هذا الكتاب يحتوي على أهم أحداث أوربا في العصور الوسطى ، لكنه لا يغني عن مراجعة المصادر والمراجع الأخرى لأن هناك الكثير من الأحداث التي لم تذكر في هذا الكتاب ، وهذا يوجب على الطالب أن يذهب الى المكتبة ويقرأ الكتب التي تتحدث عن العصور الوسطى ، لان الطالب الجامعي يجب ان يكون باحثاً وقارئاً ومثقفاً ، لكي يستطيع ان يساهم في بناء المجتمع الاقتصادي والاجتماعي في المستقبل القادم .

الصالحات (صور سون) من مما وفي ظروفأ جيدة لسيادة النظام الإقطاعي. ذلك أن العوامل المذكورة أعلاه قد لعبت بمجملها وعلى مر السنين دوراً أساسياً في بلورة النظام الإقطاعي واستقراره في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين.

ان هذه الفوضى الشاملة التي تعرضت لها أوروبا الغربية قد دفعت الناس إلى طلب الحماية والأمن، ولم يكن أمامهم غير الأقوياء من الأمراء والمنتفذين الذين أصبحوا ضعافاً إلا أنهم الأقوى ممن هم أدنى منهم. ولما كان هؤلاء بحاجة إلى أتباع مسلحين يساعدونهم في التغلب على ما يواجهونه من أخطار، فقد انضوى تحت ألويتهم العديد من الأسر التي لا تملك الأرض، فكان الأمير أو المالك يمنح الأسرة أو الفرد إقطاعاً من أراضيه ليعملوا فيه وليكونوا جنداً له. أما صغار ملاك الأراضي فقد دفعتهم الفوضى الشاملة إلى الدخول في حماية من هم الأقوى منهم مقابل التنازل لهم عن أراضيه، ثم يعود ذلك المالك المتنازل عن أرضه في تسلمها من حاميه على شكل إقطاع.

لقد كان ظهور الإقطاع خطوة إلى الأمام أنقذت أوروبا من الفوضى التي اجتاحتها وأمنت للفرد الحماية والطمأنينة، فهو الوسيلة التي أرادت بها أوروبا إيجاد نوع من الحكم يفي باحتياجات الفرد. لذلك كان الإقطاع عبارة عن عقد اجتماعي مقبول يحدد واجبات وحقوق الإقطاعي وتابعه بشكل متبادل وملزم للطرفين. يقوم السيد (الإقطاعي) بموجبه بتقديم الحماية والأرض التي يقاتل منها التابع ويخدم فيها لصالح السيد. وعلى التابع أيضاً أن يحترم السيد وأن يؤدي الخدمة العسكرية في حالات الحرب وأن يفدي سيده إذا وقع في الأسر، ويدفع له الضرائب مثل ضريبة الرأس السنوية وضريبة الصيد أو الرعي وأن يحسم قضاياه أمام محكمة السيد.

لم يكن عقد الإقطاع مكتوباً إلا في حالة استثنائية، وعموماً يجري العقد وفق مراسيم خاصة تسمى بحفل الولاء أو القسم. ففي الولاء يجثم طالب التبعية على ركبتيه ويضع يديه مضمومتين في يدي السيد إشارة إلى أنه يفوض أموره إليه ويقدم له الولاء ثم يشير السيد

على طالب التبعية بالوقوف ويقبله عندما يردد طالب التبعية القسم بالإنجيل وهو: "سيدي إني قد دخلت في تبعيتك وعهدك وقد أصبحت منذ الآن رجلك بالقول والإشارة والتي القسم وأعد أن أحافظ على العهد والولاء لك أمام الآخرين وأن أبذل كل ما في وسعي من قوة للذود عن حقوقك". ويسلم السيد طالب التبعية عادة عصا أو سيفاً منياً يسترجع منه في نهاية حفل التولية.

أدى توسيع الأراضي والإقطاعيات التابعة للمالك أو السيد إلى صعوبة إدارتها والسيطرة عليها، لذا اضطر الأقطاعيون إلى تسليم أجزاء من ممتلكاتهم إلى وكلاء لهم مما جعل أوروبا الغربية عبارة عن إقطاعيات صغيرة تتمتع كل منها بالاكتهاء الذاتي وتلتزم بالتقاليد والأعراف التي أقرتها ظروف نشأة الإقطاع.

أصبح المجتمع الإقطاعي مقسماً إلى ثلاث طبقات بارزة هي:

- 1 - طبقة الأسياد: وهم الإقطاعيون الذين يمتلكون الأرض وما عليها من مستلزمات: الإنتاج مثل الطاحونة والفرن والمعصرة. كما كانوا يتمتعون بحصانة قضائية وعسكرية. وقد تطور أفراد طبقة الأسياد ليصبحوا نبلاء (Baron). ويدخل رجال الدين الكبار ضمن طبقة الإقطاعيين لامتلاكهم الأراضي رغم أنهم يتميزون عن النبلاء في مهمتهم واهتماماتهم: وفي بعض الأحيان يتحول النبيل إلى رجل دين.
- 2 - طبقة الفرسان: لا يفرق بعض المؤرخين بين هذه الطبقة وطبقة الأسياد بل إنهم يعتبرون النبلاء ورجال الدين والفرسان طبقة واحدة تقابلها طبقة الفلاحين الأبقان. ويعود ذلك إلى أن الفارس هو النبيل أو بالأصح ابن النبيل الذي يؤخذ للتدريب العسكري منذ سن الحادية عشرة ويستمر في تدريبه حتى السادسة عشر ليمنح بعدها في حفل خاص لقب (فارس) وهذه الطبقة هي بمثابة الضباط القياديين في العصور الحديثة.
- 3 - الطبقة العامة: وتشكل غالبية المجتمع التي يؤلف الأبقان غالبية أفرادها. والمتبقي منها الفلاحون الذين يتمتعون ببعض الحرية مثل حرية اختيار السيد وحق الزواج وقلة الأعمال الشاقة. أما الأبقان فهم الذين ارتبطوا بالأرض فأصبحوا بتطور الإقطاع ملكاً للإقطاعي مثل الأرض والماشية ومستلزمات الزراعة ففقدوا حريتهم كلية بحيث لا يمكن للقن أن يغادر مزرعة السيد إلى مزرعة أخرى، وعندما تنتقل ملكية الأرض إلى سيد آخر فإنه ينتقل معها وإذا ما أراد القن أن يرسل ابنه إلى المدرسة عليه أن يدفع عنه تعويضاً لسيدته، وإذا تزوج القن وكان الزواج يستلزم انتقاله إلى الإقطاعية التي توجد فيها الزوجة فعليه أن يدفع تعويضاً أيضاً ومثل هذا ينطبق على الفتاة التي تلتحق بزوجها في ضيعة

اخرى. ووصلت التبعية المطلقة الى حد حق السيد في قضاء الليلة الأولى مع عروس رقيقة.

لقد كانت الكنيسة ركيزة أساسية للاقطاع، فقد التقت مصالح رجال الدين مع الملاك الاقطاعيين حين حولت الكنيسة المفاهيم الدينية السماح الى غطاء يمنع تمرد الاقنان على واقعهم المهين من خلال التأكيد على الحياة الآخرة واهمال الحياة الدنيا مما يعزز القناعات عند الطبقة العامة ان حياتها في ظل الاقطاع امر لا اهمية له مهما بلغت من السوء ما دامت الروح هي الاساس في حكم الآخرة. مقابل هذا الشيء تمتع رجال الدين، وخصوصا الكبار منهم بامتيازات واسعة وتحولوا الى اقطاعيين يعيشون حياة مترفة وماجنه لا تتسجم مع مواقعهم الدينية ولا تتفق مع تعاليمهم للناس. ولقد بدأ تحول رجال الدين الى اقطاعيين عندما اعطي الحق للسيد أو النبيل تعيين اسقف أو كبير الاساقفة في اقطاعيته، فكان النبيل يمنحه اقطاعا من عنده، فتكاثرت الاقطاعات الكنسية حتى اصبحت الكنيسة اكبر ملاك الارض اضافة الى انها كانت تتلقى الهدايا والنفائس. ونصيب من الايرادات الاقطاعية بمختلف اشكالها، بما فيها الاراضي والاقنان، من الملاك والسادة والنبلاء تكفيرا عن ذنوبهم وخطاياهم ولكسب مساندة الكنيسة لهم. ثم تعددت مسؤوليات الكنيسة لتصبح مركزا للتجارة والبيع وكذلك المتاجرة بالممتلكات بما فيها المناصب الدينية. وهكذا ارتبطت الكنيسة مصيريا بالنظام الاقطاعي وتطورت سلطاتها لتشمل الأمور الدينية والدنيوية ولاشك ان تبنيتها مقاومة المسلمين في اسبانيا واثارة الحروب الصليبية قد جعلها اقوى سلطة من قبل.

وبقدر ما كانت الكنيسة ركنا اساسيا للاقطاع فانها اصبحت عاملا مهما في سقوطه لعوامل عدة منها ان الكنيسة تحولت الى مؤسسة فوقية بعيدة جدا عن المبادئ المدنية. وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر اصبحت البابا يجمع بين صفحة الدينية كرئيس للكنيسة وصفة دنيوية مكنه النظام الاقطاعي من اكتسابها فاصبح حاكما دنيويا له بلاط يمتاز بالترف والانحراف. الا أن هيبة البابا بدأت تتدهور منذ القرن الرابع عشر، وهو القرن الذي شهد بدايات ضعف نظام الاقطاع مع تنامي الاسس التي قامت عليها النهضة الأوروبية في القرنين اللاحقين.

البابوات، فسرت عوامل التفكك والضعف في الكنيسة وعالمها المسيحي. ولقد ترتب على الأسر والانقسام البابوي أن أصبحت سلطة البابا موضع نقاش وجدال، كان الترف وجمع المال وتحقيق المصالح الخاصة أحد أركانه الأساسية مما دفع الكثير من المفكرين والمصلحين إلى المطالبة بالإصلاح الذي شكل إحدى الظواهر الأساسية للعصور الحديثة فيما بعد.

من جانب آخر فإن الكنيسة قد زرعت ركناً آخر في عملية ضعفها التي ترتب عليها ضعف النظام الإقطاعي وانهياره، وهي شنّها الحروب الصليبية على العرب المسلمين حيث أنهكت هذه الحروب النبلاء ورجال الدين واستنزفت الكثير من قواهم مما جعلهم ضعفاء أمام القوى التي ظهرت فيما بعد تدعو إلى نهضة أوروبا وانبعاثها. ولا شك أن احتكاك الأوروبيين بالعرب المسلمين من خلال هذه الحروب قد ساعد على نقل الكثير من مظاهر الثقافة والعلم فبدأ عصر الترجمة في أوروبا حين ترجمت علوم اليونان من العربية وبدأت شريحة معينة من المجتمع، ممن عرفوا فيها بعد بالطبقة الوسطى، تتجه إلى تحدي مبدأ الكنيسة بالتسليم لكل شيء تقوله واتجهوا إلى نقد ما كان شائعاً حتى في الدين نفسه، فظهر (الهرطقة) الذين تعرضوا لمساوئ الكنيسة بالنقد والتفريع. كما انتشرت في أواخر العصور الوسطى الجامعات، ورغم أن الكنيسة كانت تحتكر الدراسة والتدريس فيها إلا أن ذلك ساعد على نشر العلم وتعميق الثقافة بعد أن بدأت الجامعات تنتشر في كل مكان.

ومن العوامل الأساسية الأخرى التي أسقطت النظام الإقطاعي هو التحول الذي شهدته الفترة الأخيرة من العصور الوسطى، فقد بدأت الثورة التجارية ونمت المدن وتطورت فأدى ذلك إلى ظهور طبقة جديدة لا تستمد أسباب حياتها من الأرض الزراعية ولا تحتاج الخضوع إلى نفوذ وتسلط الإقطاعيين مثل آبائهم، فاعدت الأنظمة الملكية بالمساعدات المادية لإعداد الجيوش. ومما ساعد في تحقيق أهداف هذا التحالف اكتشاف البارود الذي استخدمته الجيوش الملكية في دق قلاع ومعازل الإقطاعيين.

وهكذا تضافرت العوامل التي أسقطت الإقطاع بعد أن انتفت الحاجة إليه وأصبح على مر الزمن نظاماً قاسياً مضطهداً للإنسان. إلا أن سقوط الإقطاع لم يأت بشكل حاد ومفاجئ وإنما كان تدريجياً، ومن الأمثلة على ذلك أن الكثير من الألقان بدأوا يتسربون للعمل في التجارة فنقلوا لأقرانهم صورة جديدة من حياة الحرية، لهذا بدأ الألقان يعلنون العصيان على سادتهم وشكلوا «الجمعيات الريفية» واضطر الإقطاعي أن يستبدل الإنسان بالحيوان في جر المحراث أو إدارة دواليب الماء في الساقية فكان ذلك إحدى إشارات ضعف سلطة الإقطاعي. لقد مهدت تلك التطورات الطريق للطبقة الوسطى والملوك القومية إلى توجيه الضربة الأخيرة للنظام الإقطاعي بركنيه (النبيل ورجل الدين) فدارت حروب مع الكنيسة أيضاً انتهت بزوال ذلك النظام.

وأخيراً ولكي تكون الصورة واضحة لابد من الإشارة إلى أن بداية عصر النهضة الأوروبية متداخل مع الفترة الأخيرة من النظام الإقطاعي إذ لا يمكن الفصل بينهما ولهذا فإن معظم العوامل التي أشرنا إليها كسبب لسقوط الإقطاع سنراها فيما بعد مظهراً من مظاهر النهضة الأوروبية وعصورها الحديثة.